القوافي

مجلة شهرية تصدر عن دائرة الثقافة بالشارقة
السنة السادسة - العدد (56) - أبريل 2024

تُعنى بالشعر والأدب العربي

الشعراء الصحفيون.. وضبط العلاقة بين الصحافة والشعر

تطوان المغربية.. مدينة الشعراء وملاذ الأندلسيين

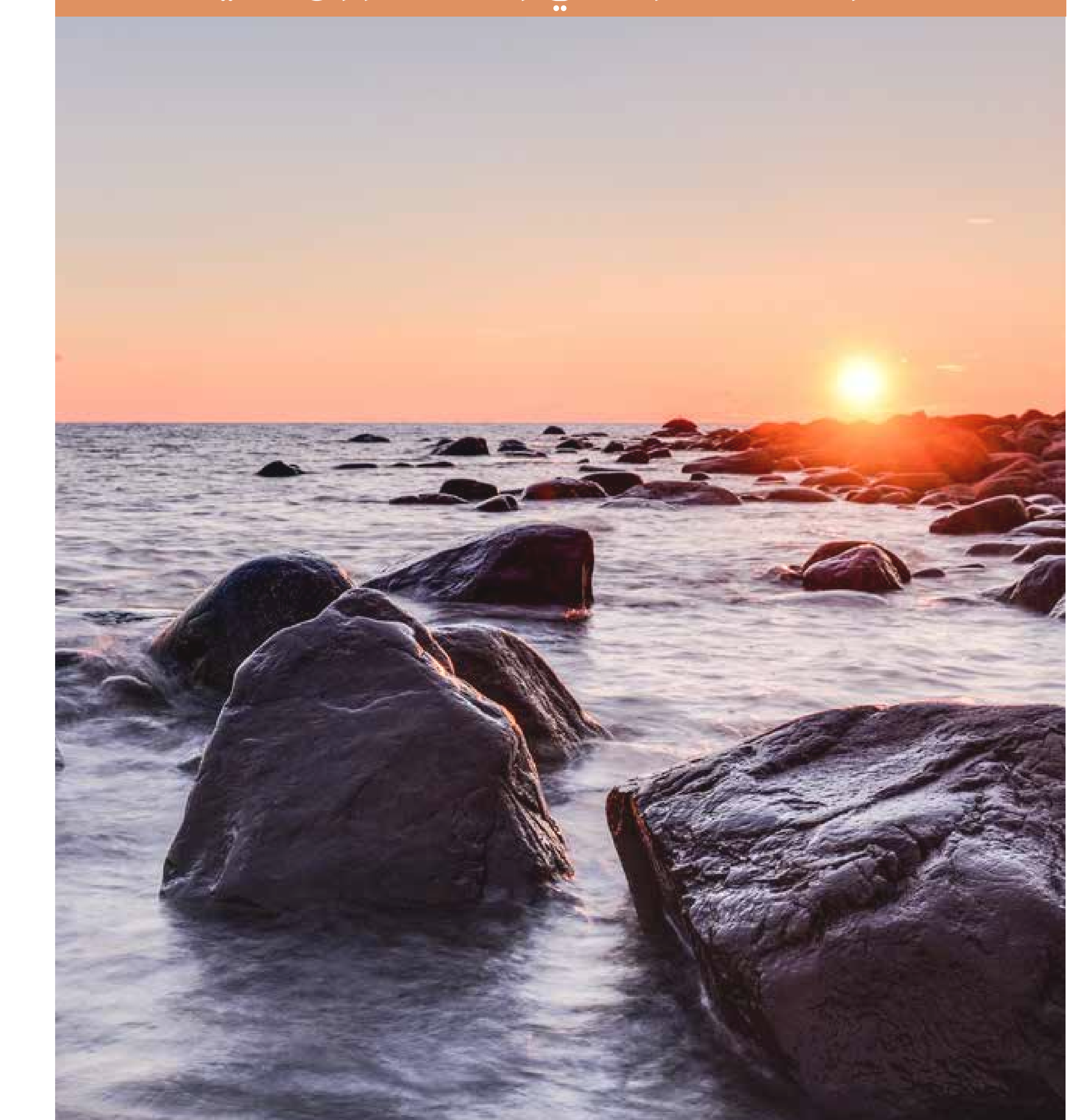


الريف.. صورة النقاء في مخيلة الشعراء

منبعٌ ثريٌّ لصورة مغايرة في القصيدة العربية

المأثور والغرائبيّ..

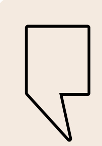
محاولات الشعراء في وصف شؤون الحياة





د. محمود الضبع
مصر

ما الذي يسهم في تحويل الوقائع والحكايات والقصص التاريخية إلى مأثور عجيب وغريب؟ أهو القدم وبعد الزمان، أم التلقّي وأثره في إضفاء طابع التهويل على القديم، أم أنّها مكونات جمالية تكمن في العمل ذاته تهيئ له الأحوال التي تجعله يتحول إلى شيء غرائبي على مر الزمان، أم طرائق السرد ذاتها التي تعتمد العجائبية في الغالب الأعم؟



اتّكأ الشعر على الغرائبي للتعبير عن الحياة

تبدو هذه العناصر مجتمعة هي التي تشكل هذا المأثور الغرائبي، فأحد تعريفاته كيفما اتفق ما يحمل هذا المعنى: «الأسطورة قصة أو مأثور يحمل بالطبع والضرورة سمات العصور الأولى والقديمة، مفسرة معتقدات الناس بإزاء الخوارق».

ويبدو واضحاً أيضاً أن الغرائبية تتماس مع محاولة تفسير، الحياة كما يفعل الناس على مر التاريخ، وبخاصة في الأمور المتعلقة بما هو غائب عن قدرات الإنسان وإمكاناته العقلية، وهو ما أنتج أشكالاً مثل: أساطير الطقس، والأصل، والصيت، وغيرها.. وهو ما يجعل الغرائبية بهذا المعنى تحتاج إلى الديني وتعتمد عليه، وشيئاً فشيئاً تتحول الغرئبية إلى معتقد يكتسب لدى كثير من الشعوب الأهمية بحكم قدمه وضربه بجذوره في عمق الزمن، وهو ما يشكل الموروث الشعبي، ويسهم على مرّ الزمان في أسطرة الحدث.

وقد اتّكأ الشعر على هذا المأثور الغرائبي، لصياغة التجربة الشعرية والتعبير عن موقف الإنسان من الحياة وتحولاتها، والأزمات الاجتماعية والفكرية التي تواجهه، وكان ذلك عبر مستويين أساسين:

- أولهما: العودة إلى المأثورات القديمة والجاهزة، لإعادة صياغتها وخلقها من جديد في روح تعبّر عن مفهوم العصر ورؤاه.



> تشكلت بنية المأثور في الشعر بالاستلهام أحياناً

- والثاني: المحاكاة، أي محاكاة بعض المأثورات القديمة القديمة، وابتداع مأثورات جديدة، وإن كانت تتّكئ في بنيتها الأساسية على مفردات مستمدة من القديم.

وقد تشكلت بنية هذا المأثور في الشعر عبر بعدين:

مستوى الاستلهام

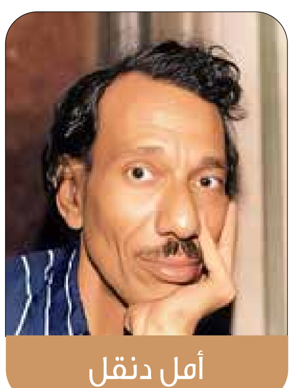
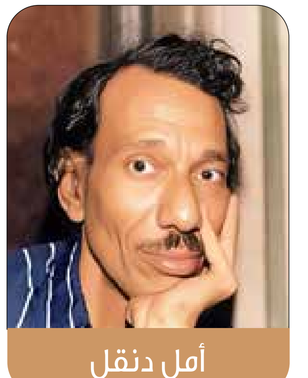
حيث يستلهم المأثور الغرائبي الكائن بالفعل، ولكن بإعادة تشكيله وبعثه من جديد، أو مجادلته وإعادة تنظيمه. وقد تضاف إلى شخصياته في هذا المستوى بعض الأبعاد والأدوار الجديدة، وقد تتغير الأحداث عنها في المخيلة الأصلية.

ويمكن في ذلك الإشارة إلى الرموز التي استقرت في وعي المجتمعات العربية، ولم يزل بعضها مستمراً، مثل: أسطورة الغول، التي وردت عند كثير من الشعراء، منهم تأبّط شراً، وامرؤ القيس، والجميع يتذكرون بيت امرئ القيس:

أيقتُلُني والمَشْرَفِيُّ مُضاجِعي
ومَسْنونَةٌ زُرقٌ كأنيابِ أغْوالِ

فالغول لا وجود له، لكنه من باب الغريب والعجيب الذي استقر في الوعي الجمعي، وتناقلته الأجيال على مدى أزمنة كثيرة، واخترعوا له الحكايات والخرافات التي لا حصر لها.


بدر شاكر السّيّاب

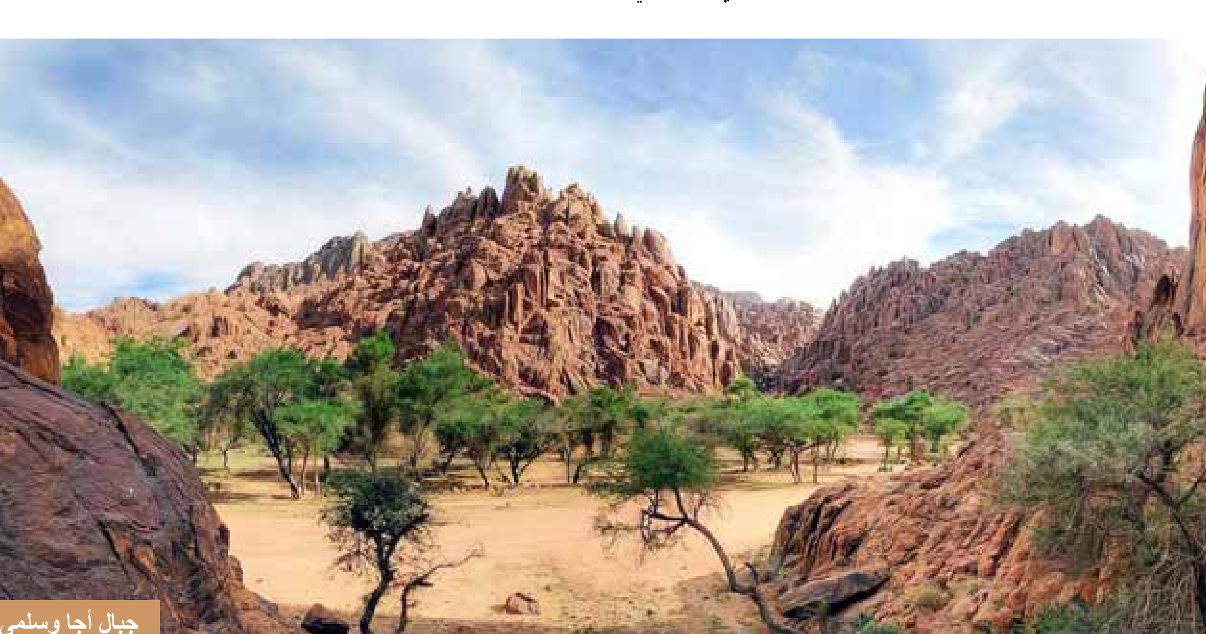



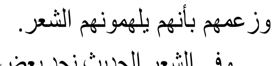
أمل دنقل

كما يمكن الإشارة إلى أسطورة «أجا وسلمى»، وهما جبلان في حائل بالمملكة العربية السعودية، وقد أحال كثير من الشعراء إلى هذه الأسطورة، ومنهم: امرؤ القيس، ولبيد، والعجّاج، وعبيد بن الأبرص، وأبو النجم العجلي، وغيرهم كثير، يقول لبيد:

أَوَتْ للشّباحِ واهْتَدَتْ بِصَليلِها
كَتائِبُ خُضْرٌ لَيْسَ فيهِنَّ ناكِلُ
كَأرْكانِ سَلْمى إذْ بَدَتْ أو كأنَّها
ذُرا أجا إذْ لاحَ فيها مَواسِلُ

وهناك أساطير أخرى كثيرة صاغتها القريحة العربية، منها ما يتعلق بالنجوم والكواكب في السماء، ومنها ما يتعلق بباطن الأرض والجن والكائنات غير المرئية، ومنها ما يتعلق بالبحار والجبال والصحاري والوديان، والآبار، والخلجان، ومنها ما ابتكره الشعراء من شياطينهم


جبال أجا وسلمى



> «رسالة الغفران» صنعت بنية غرائبية غير معهودة

وزعمهم بأنهم يلهمونهم الشعر.

وفي الشعر الحديث نجد بعض الشعراء قد أخلص لبنية العجيب والغريب تلك، ووجد فيها مجالا متسعا للتعبير عن القضايا التي يتبناها في موقفه من مجتمعه وتقديم رؤاه الشعرية، وبخاصة مع الاتجاه نحو الواقعية وما أقرته من ضرورة أن يكون الشعر والأدب عموما في خدمة المجتمع وقضاياه.

ومن هؤلاء الشعراء، «بدر شاكر السياب» في دواوين عدّة، ومنها ديوان «جيكور أمي» حيث يضم أبنية أسطورية تكشف عنها جملة من الرموز والإشارات التي انتزعها الشاعر من مرجعيات متعددة، يقول:

مَنْ يُنْزِلُ المَصْلوبَ عَنْ لَوْحِه؟
مَنْ يَطْرُدُ العُقبانَ عَنْ جُرْحِهِ؟
مَنْ يَدْفَعُ الظّلْماءَ عَنْ صُبْحِه؟
ويُبْدِلُ الأَشْواكَ بالغارِ؟
أوّاهُ يا جَيْكورُ.. لَوْ تَوجدين
لَوْ تُنْجِبينَ الرّوحَ، لَوْ تُجْهِضين
كَي يُبْصِرَ السّاري..
نَجْماً يُضيءُ اللّيلَ للتّائهين

حيث تجتمع عناصر متعددة تنتمي إلى أكثر من حقل عجيب وغريب، فهو يبدأ بجو أسطوري متسائلاً فيه عن الصمت والموت، والليل الذي يغمر النار، والحاجة إلى البطل أو المخلص أو المضحّي. ويختتم المقطع أيضاً ببعد ينتمي للمأثور التراثي القديم، وهو: النجم الذي كان بزوغه إشارة بولادة المنقذ عند المجوس قديماً.

وفي مشروع عبد الوهاب البياتي، الشعري نجد عالماً من الرموز والمفردات الأسطورية، مثل عائشة، لارا، خُزامى، عشتار، أوفيليا، التي استطاع عبرها أن يصنع عالمه الأسطورى، وهى رموز لا تكتفى بدلالاتها القديمة، بل تضيف إليها أبعادا لم تكن فيها، يقول:

تَنْهَضُ منْ تَحْت رَمادِ الأسطورة، عَنْقاء
تَتألَّقُ نَجْماً قُطْبياً،
وتُهاجرُ مِثْلَ الأنْهار.
تَتَقَمّصُ في ألْواح الطّين

صورة عشتار

فالأسطوري ينطلق من سؤال الحياة والكون والبشر، وقضايا الإنسان، إلى التعبير عن واقعهم، وآمالهم وآلامهم، ويحيل في كل ذلك إلى جملة من



البياتي والسيّاب ونازك
حولوا مشاريع شعرية رموزاً


عبد الوهاب البياتي


نازك الملائكة

الأساطير (الطائر الخرافي العنقاء، والآلهة عشتار إلهة الحب والحرب، وما تستدعيه من ملحمة جلجامش).

وقريب من ذلك ما نجده عند الشاعر أمل دنقل، في كثير من قصائده التي اتّكأ فيها على بنية المأثور الغريب، مثل استعادته لأسطورة زرقاء اليمامة، التي زعموا أنها كانت تبصر على مسيرة ثلاثة أيام، وإن كان الشاعر قد انتقل برمزيتها من الرؤية البصرية إلى رؤية استشراف المستقبل في سياق الواقعي وقضايا المجتمع، يقول في قصيدة بعنوان: البكاء بين يدي زرقاء اليمامة:

أسألُ يا زَرْقاءُ..
عَنْ فَمِكِ الياقوتِ، عَنْ نُبوءة العَذْراءْ.
عَنْ ساعِدي المقطوعِ، وهو ما يزالُ مُمْسكاً بالرّايةِ المُنَكَّسَة.
عَنْ صُورِ الأطْفالِ في الخوذاتِ، ملقاةً على الصَّحْراءْ.
عَنْ جاريَ الذي يَهُمُّ بارْتشافِ الماءْ..
فيثقبُ الرّصاصُ رأسَهُ.. في لَحْظَةِ المُلامسة.

فالعرّافة (زرقاء اليمامة) تصبح رمزاً للتعبير عن واقع الأمة في الستينات بعد نكسة 1967، وتُستعاد لأجل التعبير عن واقع الحياة المرير آنذاك.

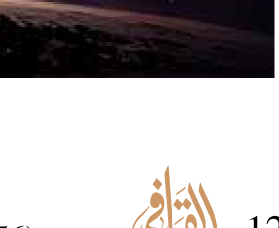
مستوى الإنتاج

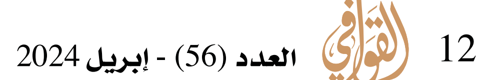
يبناء فكرة الغرائبي الذي يخصّ الشاعر، وإن كانت له مرجعيات قريبة الشبه من البناء العام - وذلك راجع إلى تشابه مورفولوجيا القصص الشعبية عالميا - إلّا أنه يعتمد على رؤية الشاعر في المقام الأول والأخير.

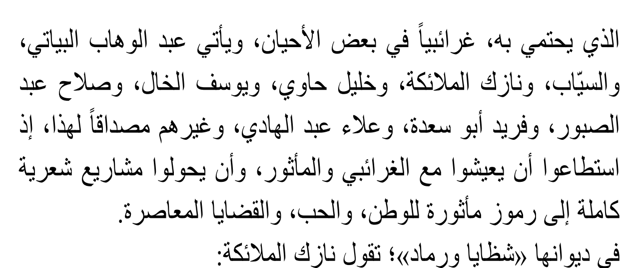
وإن كان هذا المستوى لا يمكن الكشف عنه عبر البناء الشعري الإفرادي، وإنما بالمشروع الشعري بعامة، وتذكرنا به مشروعات تاريخية عربية، منها: «رسالة التوابع والزوابع»، و«حَيّ بن يقظان» لكتّابها الثلاثة (ابن طفيل وابن سينا وابن النفيس)، و«رسالة الغُفران» للمعري، فكل من هذه الأعمال استطاع أن يصنع له بنية غرائبية ليس لها وجود من قبل.

وفي الشعر التفعيلي سعى كثير من الشعراء لأن يجعل عالمه الخاص الذي يحتمي به، غرائبياً في بعض الأحيان، ويأتي عبد الوهاب البياتي، والسيّاب، ونازك الملائكة، وخليل حاوي، ويوسف الخال، وصلاح عبد الصبور، وفريد أبو سعدة، وعلاء عبد الهادي، وغيرهم مصداقاً لهذا، إذ استطاعوا أن يعيشوا مع الغرائبي والمأثور، وأن يحولوا مشاريع شعرية كاملة إلى رموز مأثورة للوطن، والحب، والقضايا المعاصرة.



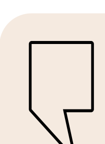






في ديوانها «شظايا ورماد»؛ تقول نازك الملائكة:

مِنْ ضَجيجِ النَّواعيرِ في فَلَواتِ الجَنوبْ
مِنْ هُتافاتِ قَمريَّة ساهرَة
وصَدى الحاصداتِ يُغَنّينَ لَحْنَ الغُروبْ
ذلك الصَّوْتِ، صَوْتُكَ سَوْفَ يؤوبْ
لحياتي، لِسَمْعِ السِّنينْ،
مُتْخَناً بِعَبيرِ مَساءٍ حَزينْ..



«ذاكرة الوعل» لفريد أبو سعدة
يكتنز بالغرائب والعجائب

فالدلالات التي تحيل إليها الشاعرة، تصنع عالما غرائبياً تستلهم عبره، تجربة العودة إلى أمجاد أمتها الغابرة، بتجسيدها لتجربتها في استعادة الصوت القديم، صوت القوة والمجد والسؤدد.

وفي الشعرية التفعيلية نجد كثيراً من هذا التشكيل، ومنه ديوان «ذاكرة الوعل» لفريد أبو سعدة، وهو نصّ واحد - وإن تعددت تقسيماته - لقضية معقدة، وتساؤلات تجمع بين خصوبة الشعرية، وتفاعلات النصوصية الفلسفية، يقدمها الشاعر في ثوب تراثيّ، يتمثل الغرائبيّ نسيجاً له، ويجنح إلى العجائبي تارةً، ويميل إلى الطقوسي تارةً أخرى، ويعتمد على التأويل تارة ثالثة.

ويتحقق ذلك، كذلك، في ديوان «سيرة الماء» لعلاء عبد الهادي، الذي يبني أسطورته الخاصة عن سارق النار «بروميثيوس» ويتساءل هو: كيف أسرق النار؟ وهو ما يدرجه الشاعر عنواناً تالياً للعنوان الأصلي في صفحة الغلاف الداخلي، ومن ثمّ تتبدل وظائف الأشياء والكائنات عبر النص، فالنار تتغير وظيفتها من الإحراق إلى الاحتياج للدفء، والماء جرح يتخلى عن وظيفته التطهيرية إلى الاحتياج للتطهير؛ هنا تبدأ الحيل الغرائبية الجديدة والخاصة في التشكل، وإن كانت تستند في مرتكزاتها وإطارها العام على أفكار غربية سابقة.

وهكذا سيظل الغرائبي منبعاً ثرياً من منابع التجربة الشعرية، يقبل أن تعاد صياغته بما يتناسب وراهن رؤى الشعراء وتجلّياتهم.